"جيل النهضة والإصلاح في بلد العطفاء" للشيخ محمد سعيد كعباش في التأريخ المحلي للعلماء، ودور التعليم في النهضة

Renaissance and Reform Generation in the "Elaatf " population by Sheikh Mohammed Saeed Kabbash In the local history of scholars, and the role of education in Renaissance

د/ رضا الأبيض

جامعة قابس ـ تونس

ridhalab69@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2018/06/05	2018/09/30	2018/12/30

ملخص:

كتاب " جيل النهضة والإصلاح " للشيخ محمد سعيد كعباش كتاب مهم لأنه يمثل شهادة على العصر. وهو وإن كان تعريفا بأهل بلدة العطف من العلماء والأدباء إلاّ أنه أيضا وثيقة هامة لدراسة الواقع الاجتماعي والثقافي وتطور الحركة التعليمية ودور المعلمين الجزائريين في فترتي الاستعمار وبناء دولة الاستقلال...

الكلمات المفتاحية: كعباش؛ الإصلاح؛ العطفاء؛ تعليم.

Abstract:

The book "The Renaissance and Reform Generation" by Sheikh Mohammed Said Kabbash is an important book because it represents a testimony to the age. If it were a definition of the "Elaatf" town scholars and writers, It is also an important document to study the social and cultural reality, the development of the educational movement, the role of Algerian

teachers in the colonial periods and the building of the independence state...

Keywords: kabash; reform; Elaatf population; education.

مقدمة:

تحتاج المنظومة التعليميةُ من حين إلى آخرَ إلى وقفة تقييم ومراجعةٍ تساهم فيها كل القوى والجهاتِ المعنية. فالمنظومة التعليمية إذا لم تتغيّر، في واقعٍ متغيّر أصابها الوهنُ والضعف وكانت مخرجاتها دون ما يُنفق عليها وما يُرسم لها من أهدافٍ وآفاق. (1).

والمقصود بالمنظومة التعليمية والتربوية رؤية للتعليم والتربية تقوم على مبادئ وأصول فلسفية وثقافية وعلى مرجعية تشريعية، تترجَم إلى خطط وبرامجَ ووسائلَ وإجراءاتٍ بيداغوجية وتنظيمية لتحقيق أهداف معرفية وسلوكية وبلوغ غايات محددة اجتماعية وسياسية ..

ومثلما كانت قضية التعليم والتربية تحتل الصدارة في برامج الحركة الوطنية ومطالبها، ظلت الشغل الشاغل لكل فئات الشعب الجزائري. فلقد شكلت الجزائر منذ حصولها على الاستقلال لجنة لإصلاح التعليم ووضع الخطط التعليمية في سبتمبر 1962، ونشرت تقريرها في نهاية 1964. وفي نهاية الستينات تشكلت لجنة وطنية ثانية، تم تتالت مشاريع الإصلاح آخذة بعين الاعتبار الحاجات الوطنية والمتغيرات العالمية.

غير أنّ الشعوب عامة إذا شرعت في التفكير في الإصلاحِ صارت المدرسة مجال صراع بين أقطابٍ وقوى عديدة فكرية وسياسيّة تريد التأثيرَ والتوجيه. ذلك هو واقع الإصلاح التعليميّ في كلّ الدول وفي كلّ وقتٍ.

وفي خضم هذه المعارك التي لا تنتهي يصبحُ من الحكمة الاستفادةُ من التاريخ واستخلاصُ الدروس من التجاربِ التي حدثت في الماضي البعيد والقريب.

فالإصلاحُ تراكمٌ وبناء وليس قطيعة وانفصالاً، وانشغالاتُ الحاضر والغد ليست مقطوعة الجذور عن الأمس.

في ضوء هذه الأطروحة الرئيسيّة قرأنا كتاب الشيخ محمد كعباش " ***جيل النهضة والإصلاح في العطفاء***.." باعتباره مؤلَفًا في التاريخ المحلّي يوثّق من خلال ترجمة أعلام العطفاء ورجالها لحركة الإصلاحِ ولمسيرة العلم والتعليم فيها منذ عشرينات القرن العشرين إلى بدايات القرن الواحد والعشرين أي خلال ما يناهز القرن.

ولّما كان كتابُ الشيخ في شكل تراجمَ اخترنا أن نهتم في بحثنا بالترجمة بنيةً ووظيفة، ثمّ بالتعليم موضوعا وقضية في تاريخ الحركة الإصلاحية وفي تجربة المؤلفِ.

إنّ اعتناءَ العرب والمسلمين بتراجم رجالهم وطبقات أعلامهم في جميع المجالات قديمٌ بدأ منذ عصر التدوين. والناظرُ في كتب التراجم يلاحظ أن الغاية منها وإنْ تغيرت بتغير الموضوع أو المجال، فإنها ظلت في الغالب تركيبَ صورة مكتملة للشخصية المترجم لها من موادَ وعناصر متفرقةٍ في مصادر عديدة.

والواقعُ أن هذه التراجمَ تعدّت وظيفة التأريخ للشّخص وتوثيق سيرته إلى كتابة تاريخ الظواهر الاجتماعية والثقافية والتربوية. ولعلّ كتابَ الشيخ محمد بن إبراهيم سعيد كعباش يمثل أحدَ هذه الكتب الترجمية المعاصرة التي وثقت لحركة الإصلاح في الجزائر بداية من عشرينيات القرن الماضي وكشفت عن الملابسات الحافة بنشأة خطابها وتطوره في سياق مجتمعيٍّ شديد الخصوصية والتّعقيدِ.

إن كتابَ الشيخ كعباش رغم اقتصاره ، في الظاهر، على تراجم وسير علماء " المجتمع العطفاوي"، ***إلاّ أنه يحملُ في طياته نظرة تاريخية وتحليليةً لمشروع***

الإصلاح والنهضة الوطنية عامّة، ولأهمية التعليم والتربية دعامةً أساسية لهذا المشروع بصفة خاصة.

وإنّ تدبرًا متأنيّا لهذا الكتاب كفيلٌ ، في رأينا، بأن يكشفَ عن أسسِ هذا المشروع وأهدافه وأدواتِه وعن الصعوباتِ التي واجهها بالإضافة إلى أعلامِه الذين ساهمُوا في بلورته جيلا بعد جيل والذين كان الشيخ العكباش نفسُه أحدَهم. ***ولا شكّ أنّ أبرز هذه الأدوات هو التعليمُ والتربية الذين كانا مجال صراع شديد بين قوى الإصلاح والقوى التقليدية والاستعمارية.***

بناءً على ما تقدم تكون محاور بحثنا:

النصُّ الترجمي : البنية والوظائفُ

دورُ التعليم في مشروع الإصلاحِ تأصيلاً وحماية

دورُ الشيخ محمد سعيد عكباش في مجالِ التعليم تنظيرًا وممارسة

1ـ النص الترجمي : البنية والوظائفُ

° وجهان لسيرة واحدة:

يدخل كتاب "جيل النهضة والإصلاح "، في رأينا، التاريخَ من باب الذاكرة. فهو إذ يكتبُ تراجم رجال بلدة العطف من المصلحين والمجدّدين يوثق الذاكرة الجماعية اعتبارًا للدور الأساسيّ الذي تلعبه في الحاضر وفي المستقبل.

ولقد اختار الشيخ كعباش في هذا المؤلَّف أن يكتبَ نوعين من الترجمة: ***الغيرية والذاتية.***

حضر في الأولى ***مؤرخا*** وشخصية قريبة من الأشخاص الذين يكتبُ سيرتهم، إذ منهم شيوخه وزملاؤه ومنهم رفاقُ درب في التحصيل العلمي والنضال الوطني. وحضر أيضا **مواقفَ ومشاعر** تجلت كأحسن ما يكون في لغة الكتابة وعباراتها الوجدانية الرقيقة التي تفيضُ تقديرا وتبجيلاً.

وكان في الثانية، أي الترجمة للذات، حضورٌ للآخر ممن عرفهم أو كتب سيرهم من الشيوخ وأهل البلدة ورفاق العمل والنضال.

على هذا النحو تداخلت السيرتان وتكاملتا لتكونا، **غيرية وذاتية، وجهين لسيرة واحدةً** هي سيرة جيلِ الرواد في مسيرة النهضة والإصلاح الوطنية، والتي رأى الشيخ الكعباشي أنّ من حقّ ممثّليها أن يُجَازُوا بما استحقوا، وأن يُخلّدُوا في سفر التاريخ (ص240). وهو السِّفر الذي تركه المؤلفُ مفتوحًا يمكن أن تُضاف إليه شخصياتٌ أخرى شرط أن يكون المؤرخ موضوعيا ومنصفًا.

° **نصّ الترجمة : النَّواة و"الفضلة"**

إنّ الناظر في بناء النصّ الترجمي لرواد النهضة والإصلاح أمثال بابا عمي الحاج أحمد الإمام والشيخ بكلي والسيد سعيد قباض والأستاذ الحاج إسماعيل إبراهيم وغيرهم.. يلاحظ أنّه يتشكل من **نواة أساسيّة** ثابتة تتكرّر ومقاطع متغيّرة غير قارة ، وأنّ عمدة نصوص ترجمة المشتغلين بالفكر والتربية خاصة تقوم على ***تجربتين أساسيين متكاملتين*** تمثلان جوهر المسألة التعليمية والتربوية هما:

تجربة التعلّم والتحصيل من مناهل مختلفة في مرحلة أولى

تجربة التعليم والتربية تدريسا وتأطيرا وإشرافا .. في مرحلة ثانية

إنّ هاتين التجربتين بما هما تجربتا أخذٍ وعطاءٍ تمثلان نواة جلّ السّير التي تضمنها كتاب الشيخ كعباش.

وممّا يميز التجربة الأولى ارتباطها في سير من ترجم لهم الشيخُ بـ :

الرّحلة والسّفر داخل البلاد وخارجها

العمل في ميادين أخرى أبرزها الفلاحة والتجارة

ممارسة أنشطة ثقافية ودعوية وسياسية في إطار المشروع التربوي والإصلاحي .

أمّا التجربة الثانية فكثيرا ما ارتبطت بـ :

العودة والاستقرار الجغرافيّ والعائليِّ

التدريس

ممارسة أنشطة أخرى ثقافية ودعوية وسياسية ..

ولبيان ذلك نكتفي ببعض الأمثلة :

تجربة التعلّم	تجربة التعليم والتربية
المترجم له الشيخ بابا عمّي .. 1910ـ 1971	
الرحلة: سافر إلى العاصمة (ص34) اتجه مع رفاقه إلى تونس (ص36) أعمال أخرى: عمل أجيرا في المتاجر(ص34) أنشطة ثقافية ونضالية : " قام بدور حيوي في مجال النشاط الثقافي للبعثة يتمثل في.. " (ص38)	العودة : " عاد الطالب الشاب إلى مسقط رأسه " (ص38) التدريس : " وهكذا بدأ عمله التربوي بإنشاء أول مدرسة قرآنية .." (ص40) " اطلع بمهمة التربية والتعليم بدعوة من جمعية الهدى ..(ص42) أنشطة ثقافية ونضالية: قام بنشاطات كثيرة في رحلاته إلى الحج.. (ص42) تنظيم أمور الجماعة صلاة وإرشادا وتحريرا وفتوى .. (ص44) " وعندما تركزت المجالس السرية لثورتنا الظافرة في قرى وادي ميزاب في مطلع الستينات لم يتردد الشيخ إطلاقا في أن يصبح عضوا عاملا في المكتب المالي لمجلسنا في العطف .." (ص50)

المترجم له : الحاج أيوب إبراهيم قرادي 1927ـ1989	
الرحلة: شد الرحال إلى تونس سنة 1931 (ص123) ثم كان من ضمن الرواد الأوائل للبعثة العطفاوية بالقرارة (ص124) أعمال أخرى: يبدو أن اعتلاله لم يسمح له بممارسة نشاطات أخرى. أنشطة ثقافية ونضالية: نشط في جمعية الشباب (ص124) وكان يكتب الشعر..	العودة : عاد إلى الوطن في 34 بعد رحلة علاج (ص123) التدريس : ارتقى إلى مهنة التدريس في 44. (ص125) .. وفي سنة 47 استقر بالعطفاء ليصبح مديرا لمدرسة النهضة .. (ص126) أنشطة ثقافية ونضالية: انتخب على رأس مجلس عشيرته .. وكان ينظم لقاءات أسبوعية على مستوى البلدة كلّها مع الشباب حتّى ينصهروا في بوتقة الإصلاح .. (ص128)
المترجم له: الحاج بكلي أحمد بن حمو 1931ـ	
الرحلة: شدّ الرحال ضمن البعثة البيوضية في القرارة (ص225) الرحلة إلى تونس في 1955 أعمال أخرى : فتح له عمّه دكانا .. (ص227) أنشطة ثقافية ونضالية : شارك في الأنشطة الثقافية بمناسبة زيارة الشيخ الإمام بيوض سنة 44.. (ص225) طلب التجنيد في صفوف جيش التحرير (ص229) وشارك في إعداد النشيد الوطني ..	العودة : العودة والزواج سنة 1951(ص226) العودة من تونس سنة 1956 (ص231) التدريس : التحق بمدرسة النهضة في 1956معلّما ومربيّا .. أنشطة ثقافية ونضالية: اطلع بأمانة مال جمعية النهضة .. كلف برئاسة المجلس الثوري .. (ص234)

° تخليد الماضي من أجل المستقبل:

من أهداف كتابة تاريخ الشخصيات والأعلام تخليدُ الماضي فلا تنساه الأجيال الجديدة. ولكن: لم نخلّد الماضي إذا لم تكن لذلك أهميّة وقيمة في تصّور المستقبلِ والاستعداد له والمشاركة في بنائه، فالماضي كما هو معلوم أفلت من إمكانية التغيير ولا مجال للفعل غير المستقبل؟

إن تخليدَ هؤلاء الرجال على اختلاف أقدارهم ومستوياتهم ليس كتابةً للتاريخ فحسبُ، بل هو ***مساهمة في كتابة المستقبل أيضا***، أي صنعِه وتكييفه على النحو الذي يتحقق به تطوّرُ الأمة الحضاري وازدهارُها.

ففي تخليد أعمال جيل الرواد دعوةٌ للأجيال الجديدة لكي لا تنسى تاريخها ورموزها، ودعوةٌ لاستخلاصِ الدرس والعبرة والاستفادة من التجربة في بناء المستقبل. ذلك هو معنى **التأسيّ** الذي أشار أشار إليه المؤلف في مقدمة الكتاب (ص2). ففي هؤلاء الرّوادِ أسوةٌ حسنة خُلقا وعملاً في شتى الميادين، وفي أهمّها وهو التعليمُ والتربية.

ولاشكّ أنّ بيتيْ الشعر الذين قالهما المتنبي واختارهما المؤلفُ مقدمةً للكلام على الشيخ بكلي عبد الرحمان (ص105)، يصدقان على كلّ الذين ترجم لهم من أبناء العطف.

قال المتنبي: ذي المعالي فليعْلُونْ مَن تعَالَى ....هكذَا هكذا وإلاّ فلا لاَ
شرفٌ ينطِح النجومَ بروْقـــــــــــــيْه وعِزٌّ يقلقل الأجبَالا (في مدح سيف الدولة)

لقد كان للشيخ بكلي الحاج أحمد وعمر بيوض وبكلي بابا الحاج أحمد بن حمو وغيرِهم كثير فضلُ شق الطريق وتعبيدها للأجيال المعاصرة التي نشأت وتعلمت في واقع ما بعد الاستقلال وفي زمن ما بعد الحرب ضد مشاريع مستعمر استيطانيّ قامت سياساته على التفقير والتجهيلِ.

ولا شكّ في أنّ تخليدَ الماضي وحماية الذاكرة على هذا النحو، أي من خلال مؤلفات الترجمات والسير ***يعيد الاعتبار للفرد باعتباره فاعلا تاريخيا*** وينبّه إلى دورِه وطاقته في صناعة الحدث. فالحدثُ التاريخيّ وإنْ كان يُسنَد عادةً إلى الجماعة فإنّه لا يجب أنْ يحجبَ دور الأفرادِ خاصة في سياقات تاريخية أطبق عليها الجهل وقلة ذات اليد.

وفي إطار إعادة الاعتبار للأفراد يمكن أن نفهمَ معنى الريادة والزعامة. ولقد أشار المؤلفُ إلى ذلك في مقدمة الكتاب، وفي أكثر من موضع آخر، مؤكدا أنّ المصلحين والمجدّدين هبة إلهية ومظهرٌ من مظاهر حكمته، وتحقّق لقوله تعالى: لا يغيّر الله ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم.

ومثلما أنّ التغيير يحتاجُ إلى رجال، فإن تخليدَ سير هؤلاء رجال يحتاج بدوره إلى رجال ـ كتّابٍ يشعرون بالخجل والتقصير إذا لم يسجلوا بعض الصفحات في ترجمة هؤلاء الأعلام ويكشفوا عن بعض ما قدّموا للوطن (ص6).

ذلك ما يجعل النصّ الترجميّ نصّا إخباريا بامتياز.

° الوظيفة الإخبارية:

إنّ التصدي لكتابة ترجمات وسير بعض أهل العطف ممّن عرفهم الكاتبُ أو سمع عنهم أو قرأ لهم يهدفُ إلى تحقيق أغراض كثيرة علميّة وأخلاقية وحضارية..

وهي أغراضٌ لا تتحقق في ظلّ غياب وظيفة أساسية تنهضُ بها الترجماتُ وتغري القرّاءَ بقراءتها والمهتمّين بالاستفادة منها هي ***الوظيفةُ الإخبارية***.

فالترجماتُ تحتوي كمًّا من المعلوماتِ الشخصية والعامّة عن المترجم لهم وظروف نشأتهم وحياتهم ..

والمعلوماتُ في النصوص الإخبارية عامّة، كما هو معلوم، نوعان: معلومات ***مسلّمٌ بها*** يعتقد الباث/ الكاتبُ أنّ المتلقيّ يعرفُها، ***ومعلوماتٌ جديدة*** يعتقد الكاتبُ أنّ المتلقي لا يعرفها.

ولاشكّ في أنّ إحدى مظاهر قيمة كتب التأريخ والسير والتراجم، مثل الكتاب الذي بين أيدينا، في ما تحتويه من معلوماتٍ خاصة النوع الثاني منها ، وفي قدرتها على الجمع بين معلومات، وإن كانت معلومة من قبَل البعضِ، مشتتة في مضانَ عديدةٍ شفوية ومكتوبة وقديمة وجديدة .

والناظرُ في كتاب الشيخ كعباش، وانطلاقا من كونه على صلة بكثير ممّن ترجم لهم يلاحظ أنه احتوى معلوماتٍ " شخصية" أضفت على الكتاب ***طابعا حميميّا*** لم يخل من جدّية البحثِ وموضوعية التناول.

لقد احتوى كتابُ الشيخ كعباش كمّا غزيرًا من المعلومات رتّبها في علاقة بالشخصيات المترجم لها، ووفق ما تقتضيه القواعدُ العامة لكتابة التراجم والسير (النشأة، المسيرة، الوفاة ..) دون التزام صارم، ***لذلك جاءت حاملة أثر مقاماتِ كتابتها وظروف تدوينها***: خطبة، خاطرة، مقالة ، خطاب ..

ومع ذلك فإنّ قارئَ الكتاب في كليّته يمكنُ أن يستنتج أنّ مؤلّفه وزّع هذا الكمّ من المعلومات على ***بنية ثلاثية نموذجية تمثّل دورة الحياة*** هي : 1ـ الولادة والنشأة ، 2ـ التحصيل والعطاء ، 3ـ الوفاة .

ضمن هذه البنية الثلاثية الخطّية ووفقها وزّع المؤلفُ المعلومات بنوعيها المعروفة وغير المعروفة. وكان من حين إلى آخر يذكرُ المصدر الذي استقى منه المعلومة.

وقد يلاحظ قارئُ الكتاب أنّ معلوماتٍ كثيرةً تكرّرت في النصّ الواحد أو في نصوص مختلفة. والسببُ في ذلك تباعدُ أزمنة تدوين النصوص من جهة ، وما بين المترجَم لهم من علاقاتٍ تجعل السير تتداخل وتتقاطعُ. إنهم ينتمون إلى فضاء جغرافيّ وتاريخيّ واحد بالإضافة إلى انتمائهم إلى خطّ فكري وسياسيّ واحدّ هو الخطّ الإصلاحيّ ..

وإنّ هذه ***الوحدة في الانتماء*** جعلت بين الأعلام المترجَم لهم، على تعدّدهم واختلافِ مراتبهم، تشاركًا وتشابها كبيرين من مظاهره:

الانحدار من وسط فقير

الجمع بين التحصيل العلمي والعمل في ميدان الفلاحة والتجارة

التنقل الداخلي أو إلى خارج الجزائر، وخاصة إلى تونس

تنوّع الأنشطة: العلمية والمدنية والخيرية والسياسية..

الالتزام الأخلاقي والوطنيّ والمساهمة في مسيرة الاستقلال وبناء الدولة العصرية ..

وتنويعًا على هذه البنية الثلاثية النموذجية كانت للكاتب توسعاتٌ أو اختصاراتٌ في ضوء ما توفر من معلومات عن الأشخاص. فطولُ نصّ ترجميّ وقصرُ آخرَ مردّه مدى غنى تجربة المترجم إليه ومدى توفر معلومات عنه، ***وليس مظهر انحياز إلى شخصية دون أخرى***.

أمّا عن موضوع صحّة هذه المعلومات وأمانتها، فإنّ الشيخَ المؤلفَ كان واعيا بذلك، لذلك أشار في أكثرَ من موضع إلى ***مصادر المعلومات*** وإلى المبدأ العام الذي في ضوئه جمعَها وهو ***مبدأ الموضوعية والإنصاف***، أي الالتزام بما تمليه الكتابةُ التاريخية من شروط رغم ما بين الكاتبِ وموضوع الكتابة من علاقات ***ذاتية وحميمّية***، وهو ما يمكن أنْ ينحرف بكتابة التاريخ نحو الانطباعية والمزاجيّة.

وهو ما يفضي بنا إلى أن نثير مسألة الموضوعية في كتابة التاريخ.

° الموضوعية في كتابة التاريخ المحلّي الراهن :

تمثل الترجماتُ التي كتبها الشيخ كعباش شهاداتٍ تاريخية. وهي إذْ تنتظمُ في كتاب وفق خط زمنيّ ومبادئَ عامة مشتركة تتحول، مجتمعة، إلى ***كتابة للتاريخ المحليّ الراهن***، بالإضافة إلى كونها أحدَ المصادر التي يمكن أنْ يستأنس بها ويعتمدها المؤرخُون والباحثون ..

وهي إذْ صارت كتابة للتاريخ المحليّ الراهنِ فإنها تطرح إشكاليات وأسئلة عن الموضوعية في كتابة الزمن الفوريّ والحي والفائر.

والواقعُ أنّ مثل هذه الكتابات طرحت تحديات كثيرة على الكُتاب منهجية وأخلاقيةً. وكانت موضوعَ جدل واختلاف. ولعلنا أميل، على خلاف التصور الوضعاني، إلى اعتبار التاريخ علما إنسانيّا وبالتالي نسبيّا ، وإلى اعتبار ***أنّ المسافة التاريخية بين الذات وموضوعها ليست ضامنة بمفردها لتحقق الموضوعية، وبالمقابل فإنّ كتابة الراهن لا تعني ضرورة انعدام الموضوعية*** [(2)].

ولقد اختار مؤلف كتاب" جيل النهضة والإصلاح" الشيخُ كعباش أن يكتبَ نصوصه بأسلوب أدبيّ، وأحيانا قصصيّ جعل الكتابَ ينزاح عن " لغة العلم الجافة" إلى لغة الأدب والفنّ. فكانت ذاتُ الكاتب في ما يكتبُ شديدة الحضور موقفا ومشاعرَ. ومردّ ذلك أنّ هذه النصوصَ وإنْ اختلفت في أزمنة كتابتها ومناسبات قولها، فإنها كلّها تشكّلت في ***مقام احتفائيّ احتفاليّ*** بالمترجم لهم. لذلك تلوّن التاريخُ بالعاطفة وتداخلت الوظيفتان الإخبارية والإمتاعيّة.

لقد كان الكتابُ شهادة حيّة عن عصرٍ لم يكن فيه الكاتبُ في موقع المراقب عن بعد بل كان جزءًا من الفعل ومن تجربة المجتمع المحلّي في مقاومة الفقر والمستعمر والدفاع عن الدين والوطن وعن حقّ الناشئة في التعلّم.

إنّ انخراطَ الشيخ كعباش في مسيرة النهضة والإصلاح جعل النصّ ***لا يمكن أن يكون إلاّ من داخل التجربة***. لذلك لم تكن لغته باردةً أو جافة جفافَ لغة العلم، بل كانت تنبضُ مشاعر وأحاسيسَ.

على هذا النحو نفهمُ كيف تداخل في هذا الكتاب نوعَا السيرة الذاتية والغيرية فكانا وجهين لسيرة واحدة وكيف تداخل الذاتيّ بالموضوعيّ ، ولم تتعارض موضوعية العالم مع لغة الشاعر..

ولقارئ الكتاب أن يطرح مسألة الموضوعية من زوايا قد تكشفُ عنها الأسئلة التالية:

ـ على أيّ أسسٍ وقواعدَ اختار المؤلفُ النخبة التي ترجم لها دون سواها؟ وهل استثنى شخصياتٍ أخرى كان عليه ألاّ يستثنيها؟

فإذا كان الجوابُ بالإيجاب حقّ لنا أن نتساءل: ما مبرّر هذا الاستثناء وهذا السكوتِ؟

ـ وهل أعطى كلّ مترجم له ما يستحقّ من عناية من الناحية التوثيقيّة؟

ـ وهل تتناقضُ المشاعر الطافحة التي عبّر عنها مع موضوعية كتابة التاريخ؟ أم هي نتيجة طبيعيّة وحتميّة بناءً على المقدّمات التي انطلق منها المؤلّفُ والإطار العام الذي أدرج ضمنه كتابه؟

ـ وهل ترك الكاتبُ الباب مفتوحًا أمام إمكانيات التنقيح والإضافة والنقد والمراجعة؟

لقد وضّح الشيخُ المؤلّفُ الأسسَ التي في ضوئها اختار هؤلاء الرجال للترجمة. وهي :

الانتماء الجغرافي (منطقة العطف)

المشاركة في مسيرة النهضة والإصلاح من شتى المواقع (العمل الخيري، الدعوي، التدريس، العمل السياسي ..)

ولا نراه خالف هذين معيارين.

وأمّا الجوابُ عن فرضية وجود استثناءات فإنّه من اختصاصِ الباحثين في التاريخ المحليّ لينقبُوا فيكشفوا عن المغمور وينصفُوا من قد يكون المؤلف نسيه أو سكتَ عن ذكره. فكتابة التاريخ كما هو معلوم خاصّة إذا عزّت المعلومات وامتدّت الحقبُ، عملُ فرقٍ وجماعات لا يقدر عليه الأفراد مهما أوتوا من قدرة ويقظة ووقت..

وأمّا عن نصيبِ كلّ مترجم له، فكان مثلما ذكر المؤلّفُ بحسب مرتبته ونشاطِه وثراء تجربته ومدى توفر المعلومات عنه. وفي ذلك، لا شكّ، يختلف التاجرُ والفلاّح عن رجل الفكر ويختلفُ الأديبُ والشاعر عن رجل السياسة ..

إنّ السيرَ التي دوّنها المؤلفُ الشيخ كعباش هي شهاداتٌ تاريخيّةٌ اجتهدَ في تنظيمها وفي تنويع مصادر المعلومات فيها. فبالإضافة إلى ما خزّنه المؤلفُ في ذاكرته اطلاعا ومعايشة نجده في بعض الأحيان يسند القولَ إلى صاحب السيرة نفسِه ينقل عنه جزءا من سيرته كما عاشها، فينهضُ بدور الراوية الوسيط بين المترجم له والقارئ. من ذلك مثلا ما نقرأه في الصفحة 231ـ232 مسندا إلى بكلي بابه الحاج أحمد بن حمو. كتب: " .. فلنستمع إليه يقص أحداثها (العودة إلى تونس) ويقول ... "

2 ـ دور التعليم في مشروع الإصلاح:

لقد تأثرت الحركة الإصلاحية في الجزائر بأدبياتِ النهضة العربية في الشرق الإسلاميّ (الأفغاني، عبده، رشيد رضا، الكواكبي..)[3] وفي مغربه (ابن أبي الضياف، خير الدين التونسي، محمد الطاهر بن عاشور ..) فراهنت، مثلها، على التعليم العربيِّ ، وجعلته الدعامة الأساسية لمشروع التحرّر وقاطرة لمشروع الإصلاح والتجديد. ولذلك نجده في صلبِ اهتمامات رجالها على اختلاف مراتبهم واتجاهاتهم[4].

ولقد تمثلت عناية الحركة بالتعليم في التشجيع عليه وتوفير ما يلزمُ من إمكانيات لإنشاء الحلقات والمدارسِ والتشجيع على رحلات العلمِ واستقدام المدرسين، والإحاطة بالطلبة وتطوير المناهج والأساليب ومنافسة التعليم الفرنسي والتبشيري المدعوم من قبل فرنسا لغايات استعمارية استيطانية[5].

لقد كانت الغاية من التعليم العربيّ بأنواعِه (في الزوايا والكتاتيب والمدارس..) تكوينَ الإنسانِ الصالح وحماية العقيدة الإسلامية والدفاعَ عنها وبالاستتباع الدفاع عن اللغة العربية وعلومِها وعن الشخصية الجزائرية وإن اختلفت المناهج وتباينت الأساليبُ.

ولا يخفى على قارئ تاريخ الحركة الإصلاحية في الجزائر الصراعُ الحادّ الذي نشأ بين اللغتين العربية والفرنسية، وما وقع بين أعلام الجزائر من اختلافٍ في الموقف من تعلّم لغة المستعمر. فمنهم من قبِلَ تعلّمها دفعا للجهل وتوفيرًا لإمكانيات التوظيف الحكومي، ومنهم من رفض ذلك مطلقا خوفا من الذوبان في ثقافة المستعمر[6]. وهو ما طرح تحديّا في مستوى توفير المدارس العربية القادرة على استيعاب أبناء الأمة الذين كانوا في تزايد، وفي مستوى توحيد المؤسساتِ وضمان استمرارها وتطوير أدائها.

ولقد كانت سنة 1931 سنة فارقة إذ شهدت تأسيس ***جمعية العلماء المسلمين*** التي ستولي التعليمَ والتربية عناية فائقة وتعملُ بكل الأدوات والوسائل على إحياء الشخصية الجزائرية وحمايتها. يقول فهمي توفيق مقبل " في الاجتماع التاريخي الذي جمع ابن باديس والإبراهيمي في مدينة سطيف سنة 1924 وُضعت الخطوطُ الأولى لانطلاقة حركة الإصلاح في الجزائر ***من طريق التعليم والتربية أولا*** ..."[7].

لقد ساهمت الجمعية في إنشاء كثير من المدارس العربية الإسلامية مثل مدرسة التربية والتعليم في قسنطينة ومدرسة دار الحديث بتلمسان في 1936،

ومدرسة الرشيدية في 1937. واستقبلت هذه المدارسُ الجزائريين وبرمجت حصصا للمتمدرسين في المدارس الفرنسية فعززت تكوينهم وساعدتهم على المحافظة على هويتهم العربية والإسلامية. وأنشأت بالإضافة إلى ذلك الأندية الثقافية والجمعيات الخيرية .. فحققت دفعًا قويّا لمشروع النهضة الإصلاحية الكبرى بداية من أوائل الثلاثينات عاضدت به مجهود الأحزاب والأفراد والجمعيات الأخرى..

ولقد كان لأبناء العطف حضورٌ متميّز في هذه الحركة منذ نشأتها، وفي مقدمتهم الثالوث: السيد بابا عمي الحاج محمد بن مسعود وبكلي صالح بن الحاج بكير والحاج محمد عدون بن بكلي الذين "مثلوا وقتئذ النخبة الممتازة من جماعة العطف بالجزائر العاصمة في أوائل العشرينيات [..] وكانوا من مؤسسي الجمعية الخيرية بالعاصمة ومؤيدي حركة الأمير خالد في شرق البلاد " (ص 36)

ولقد نهضت مؤسساتُ التعليم العربية بأنواعِها التقليدية والعصرية بدور أساسيّ في:

° **حماية العقيدة والدفاع عنها:**

تعرضت الجزائر، كسائر بلدان المغرب العربيّ، لحملات تنصيرٍ قبل الاحتلال الفرنسي. واختارت فرنسا منذ 1830 أن تواصل مشروعَ التنصير مرّة بالقوة وأخرى سلميّا من خلال برامج وأنشطة كثيرة ومختلفة منها التضييق على تعليم القرآن وعلومه وتكثيف البعثات والإرساليات وغلق الكتاتيب والزوايا والمدارس[8] وبناء الكنائس .

ولذلك كانت حماية العقيدة والدفاع عنها أهمّ مبادئ الحركة العلمية والإصلاحية فخصصت له الحيز الأكبرَ في نشاطها وكتاباتها ومنشوراتها ولم

تلتزم بالسّقف الذي رسمته الإدارة الاستعمارية التي رأت أنْ يقتصر التعليمُ على تحفيظ القرآن للصبيان فحسبُ..

والناظرُ في تراجم كتاب الشيخ كعباش يلاحظ بيسر أنّ كلّ الذين سجّل سيرتهم، بدءا بالحاج إبراهيم محمد بن بهون، المعلم المحنك والمربي العصامي (ص6) كانوا يتردّدون على الكتاتيب لحفظ القرآن. فحفظُ القرآن بالإضافة إلى أنّه يقترن بتعلم القراءة والكتابة، يحميه من النسيان ويثبته مكونا أساسيّا من مكونات شخصية الصبيان فينشئون على هديه يحلّون ما أحلَّ ويحرّمُون ما حرّم .. لكنّ أغلبهم لم يكتف بالنزر القليل.

ولقد لعبت المدارسُ القرآنية على بساطتها الدورَ الأكبر في حماية القرآن والدين في مرحلة تاريخية تحالف فيها الجهلُ ومشروعُ التنصير لطمس هوية الجزائر العربية الإسلامية.

ولقد كان إنشاءُ المدارس القرآنية وتوفيرُ مستلزمات التعليم الديني (المدرّس، الحجرة ، مستلزمات الكتابة والقراءة..) من أثقلِ التحدّيات التي واجهتها الحركة الإصلاحية أمام تزايد أعداد الناشئة وعزوف الكثيرين عن الالتحاق بالمدرسة الفرنسية التي " تعلم لغة الكفر في معتقد أهل البلد آنذاك" (ص89،8..)

ورغم أنّ حظّ الناشئة من التعليم الديني التقليديّ عادة ما يكون زهيدًا إلاّ أنه كان يوفر ***قاعدة أولية وصلبة*** تمنع الانحراف الأخلاقيّ، وتهيؤ من حالفته الظروفُ إلى مواصلة مشوار التحصيل العلمي والترقي الاجتماعي .

ولعلّ عودةً سريعة إلى سيرة السيد سماوي الحاج إسماعيل (صص 86ـ 104) على سبيل المثال تؤكد ما ذكرنا من أنّ التعليم الدينيَّ وإنْ كان زهيدًا قد يوفر قاعدة صلبة تتشكل في ضوئها شخصية الرجل فيرتقي في مجال العمل الخيريّ والدعوة الإصلاحية والوطنية حتّى يعدّ مناضلا ورمزًا.

ولقد ارتبط الدفاعُ عن العقيدة وحمايتها ممّا يتهدّدها من مخاطر(التنصير، الجهل والخرافة..) بإحياء اللغة العربية وحمايتها من النسيانِ ..

° حماية اللغة والدفاع عنها :

تمثل اللغة وعاءَ الأمة الثقافي ورمزها تسهم في تماسكها وتعزّز حضورها. وهي بالإضافة إلى كونها أداة التواصل اليوميّ أداة الإبداع العلميّ والفنّي. لذلك هي تتطلبُ استيعابًا واستعمالا لتظل حيّة لا يقضي عليها الإهمالُ والنسيانُ[9] ، ولا تغلبها ، في سياق صراع اللغات [10] والثقافات ، لغة المستعمر التي سخر لها كلّ الإمكانيات لتوطينها في الإدارة والتعليم والشارع[11].

إنّ اللغة ميدانُ صراع ومعارك كثيرة ومتعدّدة هي وجه من وجوه الصّراع الحضاري والثقافي حول التاريخ والأرض والمستقبل، بل لعلّها المعركة الأخطر لأن اللغة مخزنُ العقيدة والقيم والخصوصية الحضارية.

ولقد ترتّبَ على ذلك ضرورة أن توليَ الحركات الإصلاحية الوطنية اللغة اهتماما خاصّا يناسبُ قيمتها ودورها الحضاريَّ، فتوفر لها شروط تحصيلها واستعمالها، شفوية ومكتوبة، لضمان استمرارها وتطوّرها. وهو ما احتاج إلى خطط وبرامجَ وإمكانيات بشرية ومادّية سينهض بها رواد "جيل النهضة والإصلاح" كلهم ، دون استثناء، كلّ من موقعه.

لقد كان الاهتمامُ باللغة وبالتربية قسمةً مشتركة بين أعلامِ هذا الجيل وإنْ تباينوا واختلفوا من جهة صلتهم بهذا الميدان ودرجة حظّهم من العلم. فالسيد أمحمد الحاج إبراهيم بن عمر (1887ـ 1965) على سبيل المثال لم يكن من رجال التربية والتعليم ولكنه لم يدّخرْ جهدا في تشجيع حركة التعليم وطلبة العلم، وكذلك السيد سماوي بن صالح (1905ـ 1979) الذي"كان في طليعة المساندين لمدرستي الشيخ بكلي وإبراهيم بن هون.. لكنهما استحقا

أن يكونا من أعلام جيل النهضة في هذه المنطقة شأنهما في ذلك شأنُ الشيخ بابا عمّي المدرس المربي القدير (ص30) أو بكلي الحاج يحي " المعلم الرائد في عصرنة التعليم " (ص 61).

إنّ الارتباطَ الوثيق بين الدين واللغة جعل الدفاعَ عنها واجبا دينيا وإصلاحيّا التقى حوله أعلامُ جيل النهضة والإصلاح كلّهم بغض النظر عن مراتبهم الاجتماعية وظروفهم الاقتصادية، ورغم عدم تجانسهم الفكريِّ أحيانا، في مواجهة مشروع استعماريّ اعتبر تعلّم الشعبِ لغتَه الوطنية أمرا محظورًا (المرسوم الحكومي الفرنسي بتاريخ 8 مارس 1938..)[12] .

المؤسسات التعليمية وأساليب التعليم والتعلّم:

اقتضى الاهتمامُ بالقرآن وباللغة العربية وحمايتُهما والدفاعُ عنهما جهودا خاصّة توزعت على مدى السيرة الزمنيِّ:

ـ مرحلة أولى : جهد التعلّم والتحصيل

ـ مرحلة ثانية : جهد التدريس والتعليم ، والتأليف ..

وهو ما استوجبَ مؤسساتٍ تكون فضاء يحتضنُ " أهل العلم" ويساعدُهم على تحقيق النجاح تحصيلا وأداءً. فأقيمت للغرض الحلقاتُ وأنشأت الكتاتيبُ والمدارسُ وأرسلت البعثات للتزود بالعلم والمعرفة ولاكتساب الخبرات، واُستقدم المدرّسون وأنفقت الأموالُ، على قلتها في ذلك الوقت، لضمان تكوين جيّد للطلاب يضعُ المدرسة موضعَها الصحيح من حركة النضال الوطني والتغيير الثقافيِّ.

ولقد عاضدت جهودَ التحصيل والتدريس تدخلاتُ الخيّرين من أبناء العطف من الفلاحين والتجار في إنشاء المدارسِ وتوفير ما يلزمها من معدّات. ***فكان التعليمُ بحقّ شأنا جماعيّا وطنيّا في فترة تاريخية كان فيها الوطنُ على مفترق طرق.***

فما هي أهمّ مؤسسات التعليم ؟ وما هي خصائص التعليم تنظيماتٍ ومناهجَ وأساليب تدريس؟

بالإضافة إلى الزّوايا والكتاتيبِ استفادت الحركة الإصلاحية من الهامش الذي وفرته المدرسة الفرنسية التي خلقت فئة كسرت احتكار المعرفة على الأوروبيين ولبّت بعض حاجاتِ المجتمع وعملت على إيصال القضية الوطنية إلى المحافل الدولية. وعملت الحركة ، في المقابل، ما في وسعها على تطوير المؤسسة التعليمية العربية الحرة فكان ***التعليمُ العربيّ الحر*** السلاحَ الأبرز في المعركة ضد المشروع الفرنسيِّ الاستيطاني. وهو تعليمٌ احتضنه الشعبُ ورعاه، وساهم فيه العلماءُ والطلبة كما ساهم فيه الفلاحون والتجار كلّ من موقعه وحسبَ قدرته.

يقول الشيخ المؤلفُ: " .. وكان للمدرسة العصرية التي أنشأها المرحوم ***الشيخ بكلي أحمد بن الحاج يحي*** في المسجد العتيق أثرَها البالغ وصداها البعيد في نفوس المواطنين، ***إذ أعطت دفعًا قويا للحركة الإصلاحية في مطلع الثلاثينات على قصر فترتها نسبيا*** ثم انقطاعها بعد ذلك سنة 1938" (ص10)

ولعل ***معهد الحياة*** مثّل نموذجًا للرؤية الإصلاحية الحديثة. وهو معهد أسّسه الشيخ بيوض في ماي 1925 بالقرارة رفقة الشيخ أبي يقضان إبراهيم والشيخ عدون وغيرهما من أعلام الحركة الإصلاحية إيمانا منهم بضرورة ***أن يشيدوا بجانب كل مسجد معهدا***.

شمل المعهدُ المرحلة الإعدادية والثانوية وجمعَ بين العلوم الدينية والتقليدية والعلوم الحديثة. ثم شرع في إرسال بعثات إلى تونس لمواصلة الدراسة فاستطاعَ أن يواصلَ مسيرة الشيخ اطفيَّشْ (1820ـ 1914) التعليمية، واستطاع أنْ يربطَ الحركة التعليمية العصرية في مزاب بمثيلتها في الجزائر وتونس والمشرق.

ولّما تزايد عددُ الطلبة في سائر مدن وادي مزاب، تأسست الجمعياتُ الخيرية التي تولت أمر التربية والتعليم. فتأسست للغرض جمعياتٌ في كل قرية، منظمَةً و سرية ثم علنية (جمعية الإصلاح بغرداية في 1928، جمعية الحياة بالقرارة في 1937 ، جمعية النهضة بالعطف في 1945 ، جمعية النور ببنورة في 1945، جمعية الاستقامة ببني يزقن سنة 1946 ،جمعية الفتح بريان 1947 ..)

وواجه المشروعُ التعليمي الإصلاحيُّ تحديات داخلية وأخرى خارجية: أما الداخلية فقد تمثلت، بالإضافة إلى العوز المادي وقلة المعلّمين، في اختلاف وجهاتِ النظر بين التقليديين والمجددين (ص12). وكان على المتشبعين بالروح الإصلاحية التجديدية المقاومة والصبرُ والتدرّج في التغيير ..

أمّا التحدي الخارجيِّ فكان يتمثل أساسًا في الإدارة الاستعمارية التي أدركت خطورة الحركة التعليمية الإصلاحية على مشروعها الاستيطانيِّ ، فأغلقت المدارسَ وراقبت المعلمين وسجنتهم وحرمت التلاميذَ من التعليم ومنعت الجرائدَ وأنشأت جمعياتٍ منافسةً واغتالت أو حاولت القياداتِ الفكرية والسياسية.

ولقد أثبتت الوثائقُ وتقاريرُ الأمن الفرنسي أنّ التعليمَ الذي تشرف عليه جمعية الإصلاح ذو طابع وطني تحرري ، وأنه يمثل خطرًا جديا على مصالح فرنسا خاصة وأنه في خصومة مع الطرق الصوفية ، وأنه لا يولي أهمية للاختلاف المالكي الإباضي .

والناظر في مضامين ومحتويات مناهج التربية والتعليم والتكوين في هذه المؤسسات التعليمية يلاحظ أنها قامت منذ البدء على مبادئ واضحة **هي *الوحدة الوطنية ومقاومة المستعمر وتعصير المعرفة*** لحماية مقومات الشخصية الجزائرية والمساهمة في تطويرها بما يحقق تطلعات الشعب وآمال أجياله.

لذلك كلّه عطّلت الإدارة الاستعمارية التعليم العربيّ وتصدت له وللقائمين عليه ما في وسعها.

3ـ دور المؤلف الشيخ كعباش في ميدان التعليم تنظيرا وممارسة :

نعتمد في إضاءة هذا الجانبِ من شخصية الشيخ كعباش على ما تضمنته الترجماتُ الغيرية في كتابه من ملاحظات تتعلق بالتعليم، وعلى الفصل الذي خصصه لنفسِه في هذا الكتاب من الصفحة 205 إلى 220 والمؤرخ في أكتوبر 2009 .

ولد الشيخُ محمد بن إبراهيم سعيد كعباش، أنعمه الله بحسن الختام، سنة 1929، ونشأ يتيما، يعضّ عليه الفقر بأنيابه كما قال (ص5). تردّد على كتّابِ القرية وحفظ القرآن صغيرا. وكان ضمن فوج البعثة البيوضية إلى القرارة من 45 إلى 1950 . وتابع دراسته في ***معهد الحياة*** ثم شد الرحال إلى ***تونس***. يقول :" فقضيت هناك أربع سنوات كنت فيها مستمعا حرا في التعليم العالي بجامع الزيتونة وطالبا رسميا في المعهد الخلدوني للعلوم التطبيقية .. " (ص208) .

ولقد أتاحت تونس للشيخ كعباش مجالا فسيحًا لإشباع طموحاتِه وإنماء قدراته، كما يقول، فحضرَ الدروسَ وجالس العلماءَ وتخصّص في العلوم الشرعية. ثم عاد إلى الجزائر سنة 1954 ليبدأ خطواته الأولى في مسيرته المهنية (مساعدًا ثم أستاذا تكميليا ثم مرسّما في السلك الابتدائي والمتوسط، ثم أستاذا في الثانوية ومديرا .. إلى سنة 1990 سنةِ الإحالة على شرف المهنة). وبعد الاستقلال انتسبَ، استكمالا للتحصيل العلمي، إلى الجامعة وتحصل على " الليسانس " سنة 1972. وفسح له انتماؤه إلى حلقة العزابة ومهامُ الوعظ والإمامة المجالَ للبحث في علوم التفسير والحديث.

وهكذا استمر الشيخُ يجمع بين التحصيل والتعمّق من جهة والتدريس والتأليف من جهة ثانية.

وهو إذ يكتبُ سيرته لا يغفل عن التوقف، في إيجاز، عند وضع التعليم حين انتمى إليه مدرسًا في سنة 54. يقول: " كنّا نزاول مهمتنا في الأقسام القديمة إلى جوار المجسد العتيق ***وهي لا تتوفر لأدنى وسائل الراحة للتلاميذ*** " (ص212).

وبالإضافة إلى ما سببته ندرة الإمكانيات وانعدام الوسائل وضعفِ الأجر من متاعبَ مادية ونفسية ، خاضَ الشيخُ ورفاقه معارك على مستوى البرامج والمقررات، منتصرين لتعليم البنات، وتعصير الوسائل، وتوسيع أفق التلاميذ والدفاع عن مكانة اللغة العربية .. فاصطدمُوا بالإدارة الاستعمارية وبـ " التقاليد والذهنيات المتخلفة" (ص212) في آن.

لقد كانت معركةُ التعليم بالنسبة إليه جزءًا من معركة التحرّر الوطني. وكان النضالُ من أجل الاستقلال واستكمال السيادة نضالا من أجل " كرامة اللغة وفعاليتها" .

ولقد كانت للشيخ كعباش بالإضافة إلى النشاط في مجال التعليم تحصيلا وتدريسًا وإدارةً أنشطةٌ أخرى كثيرة دعوية واجتماعيةٌ وسياسية ركب فيها الصعبَ، وكانت غايته الأساسيّة " إصلاح أوضاع البلدة" إيمانا منه، كما يقول، بأنّ " ***التعليم قبل التعمير***" (ص215). فتكاملت في تجربته سائر الأنشطة وتعاونت على تحقيق الهدف ذاته : السموّ بالفرد أخلاقا وفكرا منطلقا ومدخلا لنهضة الأمة ورقيّها.

ونحن إذا ما تأملنا هذه القاعدة الذهبية : " التعليم قبل التعمير" تبيّنا ***العلاقة التلازمية*** بين شِقيْها، إذ لا تعمير في غيابِ العلم والمعرفة. ولما كانت أفضل

فضاءات العلم والمعرفة ، بالإضافة إلى البيت والمسجد، المدرسة كان السؤال الملحّ : أية مدرسة؟

يقول الشيخ موضّحا دورَ المدرسة في تمكين الأمة من أسباب الترقي: ".. اعتبرت نفسي ذلك الجنديّ المتأهب لخوض معركة التجديد والإصلاح من خلال مطاردة جيوش الجهل وتزويد النشء بالعلم والمعرفة، مع تدارك القائمين عليه من الآباء والأمهات بالتوعية الرشيدة والتوجيه السديد. ***وما الوسيلة المثلى إلى تحقيق ذلك غير المدرسة والمسجد***، إذا قاما بدورهما التربويّ والاجتماعي ***وفق متطلبات النهضة الحديثة وعلى ضوء الإرشاد الربانيّ*** .. " (ص215).

إنّ تحرّرَ الأمة ونهضتَها حسب المؤلف الشيخ كعباش ليست مشروطة بتوفر المساجد والمدارس فحسبُ، بل هي مشروطة بالأساس بالمحتويات والمناهج التي تعتمدها هذه المؤسساتُ في تحقيق دورها التربويّ والاجتماعي، والتي يرى المؤلفُ ضرورة أن تكون موفقة بين الأصالة والمعاصرة بقدر تجذرها في بيئتها ومحيطها تكون منفتحة على العالم والعصر.

لقد كان مبدأ التوفيق جوهر أطروحة الحركة الإصلاحية في الجزائر عامّة وفي منطقة العطف خاصّة، وكان سببَ الاختلاف بين الاتجاهين التقليدي والحديث.

ولقد احتاج رهانُ التوفيق بين الأصالة (الدين، اللغة العربية ..) والمعاصرة أنّ يطعمّ المصلحون، ومنهم الشيخ كعباش، التعليم الدينيّ الحرّ ببرامج تكوين حديثٍ نظريا وتطبيقيّا ، وأن يطوّروا الجانبَ التشريعيّ والأداء الإداري والخدماتي (ص216)، وأن يدافعُوا عن حق الفتاة في نصيبٍ من التعليم أساسيٍّ يهيئها لتكون مواطنة صالحة تساعدُ على تربية النشء تربية سليمة . يقول " .. وبسعي وإلحاح من رئيس الجمعية الشيخ ابن يوسف الحاج

سليمان بن الحاج داود ***اقتحمت بمفردي مسلك تعليم البنت قراءة وكتابة*** وفق ما لحصص البنين مما قررته لجنة وحدة التعليم في المدارس الإصلاحية . ***وعلى ما تحملته من عنت في ذلك المسلك الوعر بحكم التقاليد والذهنيات المتخلفة*** فقد واصلتُ مشواري فيه زيادة على عملي لتعليم البنين، لمدة أربع سنوات، وقد أساغه الأولياء وشجعوه" (ص212).

ولقد انعكست الرؤية الإصلاحية للتربية والتعليم في جانب المحتويات والبرامج إذ انخرط المصلحون ومنهم الشيخ كعباش في معركة ما يمكن الاصطلاح عليه: ***فتح الأفق***.

لقد كان الأفقُ بسبب التقاليد والذهنيات من جهة وبسبب الإدارة الاستعمارية من جهة ثانية ضيقا لا يلبّي تطلّعَ الناشئة ولا يمنحُهم ما به ينخرطون في مشروع التغيير الوطني، لذلك زاوجَ الشيخ كعباش بين مواصلة مسيرة التكوّن، ومهمّة التكوين مستفيدًا كما يقول من تجارب زملائه ، متحيّنا كل الفرصِ المواتية للتعلّم وللامتحانات. وهكذا ترقّى وظيفيّا وعلميّا رقيّا أعطى أكله خاصة بعد سنة 1962 التي كسب فيها الجزائريون معركة الاستقلال السياسيّ. فكان نموذجا وقدوة في مجتمعه المحليّ وفي أرجاء الوطن .

بعد 62 كان على الجزائريين أن يكسِبوا معركة الثقافة والتنمية ، وكان على الشيخ كعباش أن يستمر صوتًا للإصلاح والنهضة الحديثة في جوانبها المختلفة والمتكاملة الأخلاقية والتربوية والعمرانية والاجتماعية...

فالنهضة في رؤية الشيخ كعباش مشروعٌ متكاملة جوانبُه يشدّ بعضُها بعضًا ، لذلك تعدّدت مهامُه وضربَ بسهم في كل مجال وميدان حتّى ذلك الذي لم يقتحمه إلاّ اضطرارًا وهو المجال السياسي لما فيه، كما قال "من مطبات وأشواك لا أحسن تفاديها" (ص217).

ولسائل أن يتساءل: لمَ كلّ هذه المهام وهذا الجهد؟

إن هذا الجهدَ المتواصلَ، والذي أفرغه الشيخُ في أكثر من مجال تعليميّ ودعويّ وسياسيّ وفي مجال التأليف والتوثيق .. يعبّر عن وعي بما سمّاه الشيخ كعباش : ***الدور التاريخيّ*** (ص218) الذي لا ينهضُ به غيرَ من أنعم الله عليهم بالعلم والصبر والبصيرة. وهو دور لا بدّ منه لنهوض الأمم ورقيها، يقيض له الله من يقوم به. ولا شك أنّ الشيخ كعباش، أنعم الله عليه بخير الخاتمة، كان أحد هؤلاء العلماء بشهادة تلاميذه ورفاقه وأهل العطف والجزائر.

والمتأمل لرؤية الشيخ كعباش الإصلاحية والتنويريّة لا بدّ يلاحظ تلازم الأخلاق والعلم في الرقيّ بالأمم وبناء الحضارات. إنهما في رأيه عمادا النهضة المتوازنة.

الأخلاق والتعليمُ أساسَا الإصلاح المتين حسب الشيخ كعباشي:

أعطى الشيخ كعباش أهميّة قصوى للجانب الأخلاقي والديني، واعتبر الاستقامة الأخلاقية والقدوة الحسنة على المستوى الفردي والجماعي تكون من ثمار التربية السليمة في البيت وفي المؤسسات الدينية والمدنية (المسجد، المدرسة، الجمعية..). وربط ربطا ***متينًا وجدليًا*** بين التعليم والارتقاء الأخلاقي والحضاري. فالتعليمُ وسيلة للترقي والمدرسة فضاء لتكوين الفرد الصالح . وفي الآن ذاته لا يقدر على هذه المهمّة غير ***المعلّم القدوة*** والمدرّس المؤمنِ برسالته.

ونظرا للعلاقة القوية بين الإسلام واللغة العربية رأى أنّ خدمة أحدِهما هو دفاعٌ عن الآخر وخدمة له، لاستحالة الفصلِ بينهما. وتلك أطروحة أساسيّة، كما هو معلوم، في أدبيات الفكر الإصلاحي والنهضوي العربي عامّة[13]. ولذلك فلا غرابة أن نجد الشيخ كعباش يؤكّد هذه الصلة تنظيرا وممارسة ***في إطار تصور متكامل للتربية ولأهدافها العقائدية والوطنية والإنسانيّة..***

ولّما كانت أوروبا، في وجهها الآخر، حاملة علم المدنية العصرية، لم يقف الشيخُ، وأعلام النهضة الإصلاحيّة المجدّة، منها موقفَ العدائيّة المطلقة، بل رأى ضرورة الاستفادة من علومها ووسائلها ، لأنّ الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدَها.

إنّ المنهج التربويّ الذي اعتقد الشيخُ في صحته ، والتزم به مدرّسا ومربيّا ***منهج تربويّ إصلاحيّ وطني وحديثٌ يهدف إلى بناء شخصية متوازنة ومتكاملة متجذرة في تاريخها ومنفتحة على محيطها.***

ولقد تجلّى ذلك في مستويات عديدة نذكرُ منها :

التأكيد على البعد الوطني في مناهج التعليم ومحتوياته في مرحلة مقاومة المستعمر وفي مرحلة بناء الدولة المستقلة ..

التأكيد على أنّ رسالة التعليم أخلاقية بالأساس

تعليمُ الفتيات، واعتبار ذلك واجبا دينيا وحضاريا

اعتماد المنهج الحواري في التعليم وعدم الاقتصار على الحفظ والتلقين

الاهتمامُ بالجانب التطبيقي و المهاري والفني ، بالإضافة إلى الجانب المعرفي الذهني

الربط الوثيق بين العلم والعمل

الانفتاح على علوم العصر، وعدم الانغلاق على القرآن والعلوم العربية ..

الخاتمة:

يصفُ الشيخ كعباش، وهو بصدد الترجمة لشيخه الحاج إبراهيم بن هون، واقعَ التعليم في الجزائر في ثلاثينات القرن العشرين في فقرة نقتطف منها التالي: " يتجمّع بن يدي الشيخ في الكتاب عدد غير قليل من أولاد الحيّ يتفاوتون في السن . ولم يكن التنظيم التربوي الحديث معروفا يومئذ ولا المسار الدراسي في مستوياته المختلفة مطبقا.. " (ص14)

وفي موضع آخر يقارن بين هذا الأمس واليوم، فيقول:" وأمّا وظيفة المؤسسة والإمكانيات والتجهيزات التي نعرفها اليوم، فلا وجود لها البتّة، بل لا نتصورها حتّى بخيالنا المحدود "

ويصفُ في شيء من التفصيل الغرفة المعتمة وجلوس الصبيان أرضًا، وضرب العصا وأدوات الكتابة والمحو(اللوح والصلصال..) وأسلوبَ التعليم حفظا واستعراضا، ومكونات مأدبة الختمة (الفول والبيض.. ص15) .. فيرسمُ لنا بأسلوبه الأدبيّ ***فترة من تاريخ الجزائر بقدر ما اتسمت بالجهل والفقر والتخلف عرفت إصرار نخبة من المصلحين وتشبثهم ،جيلا بعد آخر، بالإصلاح والتغيير.***

ولقد كان للشيخ كعباش ***فضلُ الانتماء إلى هذه النخبة وفضل الكتابة عنها*** اعترافا منه بدورها التاريخيّ وحماية للمستقبل من الحيرة والتيه.

المصادر:

كعباش (محمد سعيد) : جيل النهضة والإصلاح في العطفاء بلد النضال والكفاح، جمعية النهضة ، الجزائر ، 2010

قواميس ومعاجم:

1-ابن منظور : لسان العرب

2-الصمد(خالد) : مصطلحات تعليمية من التراث الإسلامي، منشورات الإيسيسكو الرباط، 2008

3-Bédarida François. Le temps présent et l'historiographie contemporaine. In: *Vingtième Siècle, revue d'histoire*, n°69, janvier-mars 2001. D'un siècle l'autre. pp. 153-160

4-موقع الشيخ سعيد كعباش على شبكة الانترنت

http://chikhkaabache.net/tafssir.php

Collot, Claude , les institutions de l'Algérie pendant la période coloniale 1830-1962, éd CNRS Alger 1987.

المراجع :

كتب :

1-بوقرة (نعمان): المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، عمان الأردن، 2009

2-حسن (محمد عبد الغني) : التراجم والسير ، دار المعارف، ط3، 1980
الحصري (أبو خلدون ساطع) : آراء وأحاديث في الوطنية والقومية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1957 .
3-سعد الله (أبو القاسم) : تاريخ الجزائر الثقافي (ج3ـ10)، دار الغرب الإسلامي 1998
4-سلامة (عبد الرحمان) : التعريب في الجزائر ماضيا وحاضرا ومستقبلا، وزارة الإرشاد القومي ، دمشق ، 1976
5-كالفي (لويس جان) : حرب اللغات والسياسات اللغوية ، تر حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ،2008.
6-مريوش (أحمد): دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، كنوز الحكمة الجزائر، 2013
7-قاسم (محمود): الإمام عبد الحميد بن باديس ، الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، دار المعارف القاهرة ، ط2، 1979.

دراسات :

1-بلحاج (قاسم): التربية والتعليم لدى الحركة الإصلاحية في جنوب الجزائر ، دراسة على شبكة الانترنت
2-حربي (محمد): الأسس النفسية للأمة الجزائرية ، إنسانيات ع 47-48، 2010
3-مكحلي (محمد): محاربة سياسة التجهيل الفرنسية في الجزائر المدارس العربية الحرة نموذجا، ضمن : التعليم والإصلاح، (جماعي) ، وزارة الثقافة تونس ، ط1، 2008.
4-مقبل (فهمي توفيق) : عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والنهضة في تاريخ الجزائر الحديث
https://www.uop.edu.jo/download/research/members/306_2064_%D8%A3._%D8%AF.pdf

رسائل جامعية:

1-لخذاري (رجاء): السياسة التعليمية الفرنسية الاستعمارية في الجزائر، جامعة محمد خضير، الجزائر 2013
2-مزهود(سليم): مفهوم الخطاب الإصلاحي عند الشيخ مبارك الميلي، ماجستير ، جامعة منتوري قسنطينة، 2006
3-وعلي محمد الطاهر: التعليم التبشيري في الجزائر من 1830إلى 1904. ماجستير ، الجزائر، 1989.

وثائق

النظام التربوي والمناهج التعليمية (سند تكويني) ، المعهد الوطني لتكوين مستخدمي التربية ، الجزائر، 2004.

الهوامش :

1ـ جاء في توطئة السند التكويني الذي أعده المعهد الوطني لتكوين مستخدمي التربية بالجزائر :" أمام التطور المتسارع الذي لم يسبق له مثيل في شتى الميادين غدا من الضروري أن يتصدى النظام التربوي لهذه المستجدات ليواكبها بل يسبقها لأن الخبراء أثبتوا بأنّ التربية ينبغي أن تسبق التنمية لأنها تكوّن لها الإطارات التي تتكفل بالتربية، بل وتخطط لها . ولذا كان الاهتمامُ بالنظام التربوي من طرف الدول المتقدمة حاسما وفعالا من أجل تحسين مردودها ووضعها في خدمة التنمية"
النظام التربوي والمناهج التعليمية (سند تكويني) ، المعهد الوطني لتكوين مستخدمي التربية ، الجزائر، 2004.

2 _ Bédarida François. Le temps présent et l'historiographie contemporaine. In: *Vingtième Siècle, revue d'histoire*, n°69, janvier-mars 2001. D'un siècle l'autre. pp. 153-160

3ـ انظر: محمود قاسم : الإمام عبد الحميد بن باديس ، الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، دار المعارف القاهرة ، ط2، 1979.

4ـ يقول مؤلفو " النظام التربوي والمناهج التعليمية .." : " ظلت قضية التربية تمثل الصدارة في مطلب الحركة الوطنية الجزائرية طيلة الليل الاستعماري ، وأحسن دليل على ذلك هو مواثيق الثورة منذ فاتح نوفمبر 54 التي تقرّ بأن التربية هي حجر الزاوية في كل بناء [...] لقد حرّر الاستقلال طموح الجزائريين في حياة كريمة ، وقد كان الحق في التعليم أو مظهر من مظاهر الحرية المكتسبة" ، ص 17.

5ـ امتز التعليم التبشيري حسب الباحث وعلي محمد الطاهر بالتخطيط المحكم والتنظيم الجيد لأنه انبنى على فهم عميق لخصوصيات المجتمع الجزائري . وحقق بعض النجاحات التي تمثلت أساسا في بناء المدارس. أما التكوين فضل ضعيفا لا يتعدى بعض المبادئ الأولية والمختصرة لأن غاية المبشرين كانت أساسا تعليم مبادئ الديانة المسيحية. ولقد التقى هذا النوع من التعليم مع مشروع فرنسا الهادف على تجهيل الجزائريين(ص261).. ورغم أنّ موقف سلطات الاحتلال من التعليم التبشيري في الجزائر لم يكن ثابتا إلا أنّ هذا النوع من التعليم التقى مع السياسة التعليمية الفرنسية (ص207).. انظر: وعلي محمد الطاهر: التعليم التبشيري في الجزائر من 1830إلى 1904. رسالة ماجستير ، 1989.

6ـ شبيه بهذا الاختلاف ما وقع بين المعمرين في الموقف من تعليم الجزائريين. فمنهم من اعتبر ذلك طريقة لذوبانهم وأخذهم بالطبائع الغربية ، ومنهم من اعتبر ذلك سببا في أن يكونوا خصوما لفرنسا.

7 ـ فهمي توفيق مقبل : عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والنهضة في تاريخ الجزائر الحديث https://www.uop.edu.jo/download/research/members/306_2064_%D8%A3._%D8%AF.pdf p14.

8ـ انظر على سبيل المثال : منشور ميشال 16 فيفري 1930 الذي ينصّ على منع الوعظ في المساجد لغير المعيّنين من قبل السلطات الاستعمارية... ومرسوم شوطون Chautemps 8 مارس 1938

القاضي بغلق المدارس العربية الحرة التي لا تتمتع برخصة ممنوحة من قبل الإدارة الفرنسية ، وتحديد معاقبة المخالفين بالسجن.

Collot,Claude , les institutions de l'Algérie pendant la période coloniale 1830-1962, éd CNRS Alger 1987, p324.

وبمقتضى هذا المرسوم اعتبرت العربية لغة أجنبية ، ومنع أساتذة جمعية العلماء المسلمين من التدريس رغم طلبات الحصول على تراخيص . وانظر أيضا قرار فيفري 1944 التعسفي ضد الهوية العربية .

9ـ يقول أبو خلدون ساطع الحصري : إن حياة الأمم تكون بلغاتها ، وإنّ الموت بالنسبة إليها ليس غير الحرمان من اللغة الخاصة بها . انظر : آراء وأحاديث في الوطنية والقومية ، دار العلم للملايين ، بيروت، 1957 ، ص 107.

10ـ للتوسع يحسن مراجعة المؤلف المتميّز : حرب اللغات والسياسات اللغوية للويس جان كالفي ، تر حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت 2008.

11ـ انظر عبد الرحمان سلامة : التعريب في الجزائر ماضيا وحاضرا ومستقبلا، وزارة الإرشاد القومي ، دمشق ، 1976.

12ـ إنّ الدفاع عن اللغة العربية بتعلّمها وتعليمها والدفاع عن العقيدة الإسلامية بالحفاظ عليها وتطهيرها ممّا قد يلحقها من اعتقادات أو سلوك بدعيّ .. يمثل ، كم ذهب إلى ذلك أحمد مريوش، مظهرا من مظاهر ثقافة المقاومة المتجذرة في الذهنية والتي كانت ولا تزال إحدى السمات المميزة للمجتمع الجزائري عبر العصور المختلفة. وهي ثقافة مرتبطة أساسا بثقافة الملكية والأرض وتعاليم الدين الإسلامي والقيم والعرف ..

أحمد مريوش : دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، ج1، كنوز للحكمة ، ط1، 2013، ص14.

13ـ وهي أدبيات على أهميتها في سياقاتها التاريخية ، لا شكّ أيضا في أهميّة وضرورة مراجعتها ونقدها. وتلك مسألة أخرى ليست من أغراض ورقتنا هذه.